

الملاحم العلمية والأدبية بوادي ريغ

أ. عبد الحميد إبراهيم قادري

تمهيد :

قبل أن نتطرق إلى سرد وذكر بعض أعلام العلم والأدب بمنطقة وادي ريغ، ولحديث عن الملاحم العلمية و السمات الأدبية التي تميزهم، و قبل أن نقدم بعض النماذج النصية لأدبهم وعلمهم، يتحتم علينا أن نسجل بعض الملاحظات التي ربما تساعدنا على رصد تلك السمات وتبرير مستوى الإبداع الأدبي والفني، وربما ستكون مدعاة إلى بحوث جامعية تحدد لنا بصفة علمية تلك الأسباب التي جعلت المنطقة يقل فيها التأليف العلمي و الانتاج الأدبي مقارنة، بما نلمسه في إقليم توات و إقليم الزيبان.

الملاحظة الأولى: إن الحركة العلمية لا تنتعش ولا تتطور إلا بجوار مراكز علمية تربوي وتعلم وتكوّن العلماء و الأدباء مثل الجوامع بين ظفرين والزوايا، على غرار جامع سيدي عقبة وجامع الزيتونة بتونس و جامع القرويين بفاس والزوايا العثمانية بطولقة و الزاوية المختارية بأولاد جلال الزاوية القاسمية بالهامل، وزاوية عبد الرحمن الأيلولي بجبال جرجرة، فمثل هذه المراكز مفتقدة بإقليم وادي ريغ وإذا وجدت بعض الزوايا فهي للإطعام و الإيواء ، وتأطير الذكر، و تحفيظ القرآن في بعضها، فالزاوية الوحيدة العلمية التي كانت مركزا علميا، هي الزاوية الهاشمية و كان تركيزها على تحفيظ القرآن وتلقين بالمبادئ الفقهية، وقد جاءت متأخرة.

الملاحظة الثانية: إن غرس العلم و توريثه يحتاج إلى رباط و اعتكاف بنية التوريث وتكوين علماء يخلفون أساتذتهم و مشايخهم و هذا ما لم يحدث بوادي ريغ، فلم نرى عالما ورث علمه بالصورة التي رأيناها في بلاد توات وغيرها من المناطق، لأن التوريث يتطلب الاستقرار والاستمرار وعدم الانقطاع ، و العلماء الذين علموا بوادي ريغ أغلبهم جاؤوا زائرين، وإذا طال بهم المقام فلا تتجاوز إقامتهم بين مربيهم و تلاميذهم فصلي الخريف و الشتاء ، ثم يرحلون هروبا من المناخ ، و إذا عادوا إلى محاضرتهم و حلقاتهم في العام القابل، بدأوا دروسهم من حيث بدأوا في العام الماضي، و بهذه الطريقة لا يتجاوز حجم تعليمهم فقه العبادات لتلاميذهم الأذكاء¹.

و لذلك فمن كان لهم نصيب من التفوق في العلم و الأدب من أبناء هذا الإقليم، فهم ممن هاجر و طلبوا العلم في المراكز العلمية خارج الإقليم كما عرفنا ذلك عن الشيخ أحمد البسطامي الذي طلب العلم بجامع القرويين بفاس، والشيخ عبد المجيد بن حبة الذي أخذ في جامع سيدي عقبة، و الشيخ الحشاني بالعمري ومحمد بالمبروك و محمد بن سليمان و محمد اللقاني و محمد الأخضر محجوبي و الأخضر السايحي وغيرهم ممن رحلوا إلى تونس و تعلموا بجامع الزيتونة.

الملاحظة الثالثة: إن المنطقة هي منطقة إقتصادية و محل لطلب الرزق و الثروة، وكل من يأتيها، يأتيها بنية طلب الرزق والكسب، ومن كان هذا دأبه فإذا كان جاهلا فلا يجد الوقت للتعلم و إن كان عالما، فإن لم يجد مركزا علميا يحتضنه ويوظفه و لم يجد من يضمن له العيش الكريم، يسعى لطلب العيش، فلا يترك له السعي التفرغ لنشر العلم وتوريثه.

الملاحظة الرابعة: من المعلوم بمكان أن الأدب و العلم وليدا الاستقرار و الأمن ومنطقة وادي ريغ لما لها من أهمية إقتصادية، فقد كانت مسرحا للقتال والفتن، فمن فتنة بني ابن غانية المسوفي الذي جلب على المنطقة، مرورا بثورة صاحب الحمار وثورة الشيخ سعادة، فحملات البايك على الإقليم إلى حضور الاستعمار الفرنسي الذي عزل الإقليم عزلة ثقافية قاتلة وأدخل الجميع في دائرة الفقر والجهل، و جعلهم يلهثون وراء لقمة العيش في مزارع المعمرين ومراعيهم.

بهذه الفتن عاش الإقليم في فزع وهلع و معاناة ماتت معها المواهب العلمية وتبلدت الأذهان وكلت العقول عن الابتكار، لأن ازدهار العلم والترف الثقافي والإبداع الفكري، من فلسفة وآداب تكون نتيجة الاستقرار والأمن، والمنطقة لم تعرف الاستقرار منذ سقوط الدولة الرستمية، إلى الكارثة الاستعمارية.

هذه العوائق مجتمعة، ربما ساهمت في الركود العلمي، وأعاقت تكوين حركة علمية، ونهضة ثقافية وأدبية متميزة.

1- **بعض الملامح العلمية و الأدبية:** من الملامح العلمية السيمات الأدبية التي تميّز بها أعلام المنطقة، هي ملمح النقل وإعادة ما تعلموه في مرحلة الدراسة، وربما إعادة صياغته ليسهل عليهم نقله إلى تلاميذهم و مريديهم، حفاظا على وحدة المنهج العقدي و الفقهي، فهم في مرحلة متقدمة إباضيون وصفريون في فقههم، إعتزاليون في عقائدهم و جمهوريون في إمامتهم، و في المراحل المتأخرة فهم مالكيون

قاسميون في فقههم وسنيون أشعريون في عقائدهم وبصريون في نحوهم و وخليليون في شعرهم و دينيون أخلاقيون في مضامين أدبهم .

ولذلك نراهم يركزون في تعليمهم على القواعد الأساسية التي تحافظ على سلامة التلاوة والحفظ الجيد للقرآن² ، والنأي بتلاميذهم عن اللحن في قراءة الأحاديث النبوية مع تحفيظ المتون العلمية ، و بهذه الصورة فهم علماء رواية لاعلماء دراية وعلماء نقل لا علماء عقل، ولم يكونوا بدعا عن زملائهم في جميع المناطق الأخرى، فكان أدبهم وعلمهم نسخة من علم وأدب عصر التوقف ولم يتخلصوا من أسر القوالب الجاهزة و المضامين المستنسخة إلا مع جيل الثلاثينات الذين تعلموا في الجامعات كما نلمس ذلك في أدب وفكر الأزهري بن ثابت و البشير براهيم و إسماعيل براهيم و محمد الأخضر بن عبد القادر السايحي و محمد الصالح باوية الذي تمرد على القصيدة العميدية في كثير من شعره والتلي بن الشيخ و علي كافي ومحمد الصغير الأخضرري وغيرهم .

2- جذور الملامح العلمية و الأدبية:

بعد هذه الملاحظات ننتقل إلى صلب الموضوع ، و نحن مطمئنين أن ما سنقدمه تقدمه في سياقه التاريخي و في ظروفه الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية ، وفي هذا الإطار نقول أن هذه الحركة لم تظهر أثارها الدالة عليها دلالة واضحة، أو تكشف عن خصوصياتها ، لعدم تدوينها وتوثيقها، ومع هذا فإن ملامحها جلية و واضحة ، باعتبار أن الثقافة الإقليمية هي جزء من الثقافة العربية الإسلامية عامة، والثقافة الجزائرية خاصة.

وأزهى فترة علمية عرفتها هذه المنطقة هي الفترة التي ساد فيها المذهب الإباضي، الذي انتشر و تقوى في ظل الدولة الرستمية، ومن نهج نهجهم من بعدهم، ففي هذه الفترة التي امتدت من القرن الثاني إلى القرن الثامن، نبغ فيهم ، علماء يشهد لهم بالعلم والفتوى ، منهم : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر³ المولود عام 340 هـ — بتسلي "ببلدة عمر" أو تالة عمر، وقد تنقل هذا العالم في عدد من البلدان لطلب العلم، من أفواه عدد كبير من شيوخ العلم الفحولوقد استقر في قبيلة مغراوة ريغ بوغلانة⁴، فقال فيهم قولته المشهورة : "ها هنا أناس رفاق القلوب ، أرجو أن ينتجع فيهم الإسلام، ويتلقوا ما نحن عليه بالقبول، ويكونون لهذا الخير أهلا"⁵ ويقصد بالذي هو عليه هو "المذهب الإباضي" وهو الذي عقد الحلقة بوغلانة لأول مرة ، وأرسى قواعدها وأقام

نظام العزابة المعمول به في وادي ميزاب إلى يومنا هذا ،وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء الأجلاء الكبار، منهم أبو الربيع سليمان بن يخلف المزاتي ، المتوفى عام 471 هـ وابنه أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى 504 هـ صاحب الكتاب النادر " القسمة وأصول الأرضين" الذي حققه الشيخ بكير بن بابا والدكتور محمد ناصر، في طبعة قشبية ومن يريد أن يعرف طبيعة النظام الزراعي، والتخطيط المعماري لمنطقة وادي ريغ فليعد لهذا الكتاب وما فيه من فتاوى تتعلق بالعرف الفلاحي والتخطيط العمراني، الذي استمر العمل به زمانا.

ومنهم أبو محمد ماكسن بن بكر،وعبد الرحمان بن معلى الذي أسس الحلقة بمسجد تقرت،ومنهم أبو نوح يوسف،وابنه زكريا الذي انتقل مع بعض أهله وذويه من تنسلي إلى توغلانت⁶،فاستقبلهم أهلها بالترحاب،وبوعوهم مكانة عالية في نفوسهم، وأقطعوهم أنواعا من الأملاك من دور للسكن وبساتين النخيل،إجلالا واحتراما لعلمه،وهذه ميزة من ميزات سكان وادي ريغ يجلون العلماء ، إلى درجة أن يكونوا لهم عبيدا،يقدمون لهم الهبات والهدايا ويخدمونهم توقيرا لعلمهم.ومن أعماله الجليلة أنه قام بالحسبة والعدل والإصلاح،فحارب قطاع الطرق الذين روعوا أمن المسافرين المسالمين،و أبطل الحرابة التي كانت تقع بين وغلانة وتمرنة.

وبعد هذه المرحلة التي برز فيها السادة الإباضية لم نعثر على نصوص علمية ولا أدبية مخطوطة سوى ما عرفناه عن المجهودات التي بذلت من أجل الحفاظ على القرآن الكريم ،تلاوة واستظهارا فقد انتشرت الكتاتيب القرآنية ، وتعددت المساجد التي تقدم دروسا في المبادئ الفقهية و العلمية وربما ما نقله لنا العياشي في رحلته عن متفقهة تقرت يؤكد لنا هذه الظاهرة العلمية ..

وفي القرون المتأخرة وبعد عودة الوعي واليقظة في مطلع القرن العشرين أدرك العلماء خطورة ما آل إليه الوضع من الجهل، فوجهوا جهودهم إلى تعليم النشء ،ويقاظ الضمائر وإصلاح المجتمع ، لإعادته إلى الروح الإسلامية الصحيحة ،التي أفسدها الدهر، ولوثتها يد الاستعمار؛ هذا العمل الدؤوب والاشتغال بالتعليم لم يترك للعلماء الوقت للتأليف و التدوين، وإذا وجدت فلم تصل إلينا.

ومع ذلك فقد طرق بعض الأعلام قول الشعر و تأليف المنظومات العلمية، التي تسهل على الطالب حفظ ما يتعلمه ، لأن الشعر العلمي كان ظاهرة بيداغوجية شائعة، يتكئ عليها المربون والمعلمون في تلك الفترة، إلا إن ما ألفه أو قاله وأنتجه

بعضهم، لم يصل إلينا مدونا ومنسوخا كما هي عادة أسلافهم من العلماء في مناطق أخرى فقد أصاب انتاجهم - بذلك - الضياع والإهمال ولم تستفد منه الأجيال اللاحقة، بالإضافة إلى الطابع الشفوي الذي تميز به الإنتاج في أغلبه، وإذا كان هناك بعض الننف النثرية المكتوبة اقتصررت على الرسائل والخطب وبعض المقطوعات الشعرية لم ترق إلى المستوى الفني إلا القليل منها.

ومن الأعلام الذين كان لهم حضور علمي وأدبي الشيخ أحمد بوبكري كان فقيها ومحققا ومحباً للعلم والعلماء، والطالب أحمد الزكيزكي وقد كان عالما وأديبا ومتصوفاً وورعاً، وقاضياً عادلاً محباً للعلم وأهله خصص داراً لنزول العلماء الذين يزورون تماسين تسمى دار لالة مامة، ومنهم الشيخ التجاني محمد الصغير الذي امتاز بسمة العلماء من تواضع وبساطة ودمائة أخلاق، وكان يدرس الفقه والتفسير والحديث والنحو والصرف في مكان ضريح الشيخ سيدي علي التماسيني، ومنهم الشيخ محمد السايح الذي عرف برقة شاعريته فكان شعره على غرار البحثري وابن زيدون، وهو مع ذلك ناثراً على غرار الجاحظ وابن قتيبة⁷ حسب ما وصفه صاحب الصروف.

و من الأعلام الذين تركوا بصماتٍ تتم عن حس أدبي جيد وفكر نير أصيل، الشيخ الطاهر العبيدي والطالب أحمد بن عظامو و الشيخ أحمد البسطامي الرحماني والشيخ علي خليل و الشيخ محمد اللقاني والشيخ عبد المجيد حبة والشيخ إبراهيم قادري و الشيخ محمد بن سليمان حمداوي و الشيخ التجاني حقي، ومحمد الصغير بحة من الأولين، والأزهري ثابت وعلي كافي وبراج البشير وبراج إسماعيل ومحمد بن عبد القادر السايحي و التلي بن الشيخ ومحمد الصالح باوية ومحمد الصغير الأخضرري وغيرهم كثير.

3- نماذج من الملاح الأدبية:

ففي ميدان التأليف والأدب نذكر الشيخ الطاهر العبيدي الذي كان علماً على تقرب، اعتكف فيها يدرس ويعلم أكثر من خمسين سنة، وقد ألف عدة رسائل فقهية معتبرة جديرة بالدراسة والشرح، كرسالة الحيض والنفاس، ورسالة التيمم في أحكامه وأسبابه ورسالة العدة في أحكام المعتدة، ورسالة تنويل الصلوات في تطويل الصلاة، ورسالة رفع الإبهام عن مسائل الصيام، وكل هذه الرسائل رجزية، ووالنصيحة العزوزية في نصره الأولياء والصوفية، ونصيحة الشباب المزيحة للسحب

والضباب، ورسالة في مناسك الحج والعمرة وألفية جريان المدد والاعتصام بالسند ورسالة انكفاف الدمة لاكتشاف مسألة الجمعة، ونظم رسالة العوامل في النحو، ورسالة القطب الدريد في البيان بأسهل بيان، و له نظم صغير في الجبر و الاختيار فضلا عن تفسيره للقرآن الكريم، هذا التفسير الذي لو وجد العناية و الاهتمام لجمع في كتاب وطبع، وقد ذكره الأستاذ اسكندر من بين العلماء المفسرين، في كتابه معجم المفسرين الجزائريين.

ففي منظومة "النصيحة العزوزية في نصرة الأولياء والصوفية" يقول الشيخ

الظاهر:

إن ترد عزة ومجدا مزية فتلق الطريقة العزوزية
فتلق أورادها وتبرك بحماها ففي الرجال بقية
كم توالى لأهلها رحمات فهي حقا والله رحمانية
ويواصل يقول:

فاحفظوا عهدا ولا تهملوا الذكر صباحا بحلقة وعشية
ولتراعوا قواعد الشرع دوما وتحلوا في الأولياء حسن نية
وأحبوا أهل انتساب فمن يحبب فريقا يلحق بهم في القضية
واذكروا باللسان والقلب حتى تذكروه بلهجة صديرة
ويواصل يقول:

هل يكون الأخير أهدى من الأول والسابقون حازوا المزية
أو يكون الأقل أهل اعتبار وهو ذو الجهل خلال البذية
قد نرى أكثر الأئمة والأئمة والاعتقاد فيهم سجية
وعلى الأولياء نثني ألوف الكتائب إلا جماعة تيمية
ثم يدخل في نقد الجماعة الذين ينكرون التصوف، فيدعو الناس للابتعاد عنهم وعدم الأخذ بأقوالهم فيقول:

قد عجبنا من فرقة سفروا في طلب العلم من بلاد قصية
بعضهم فاء بالحصول على نزر وبعضهم ما فاء بالأمنية
ثم أبو إلينا وقد ملئوا كبرا ومن أوليائنا سخرية
فأثاروا في الناس كل شقاق وادعوا في العلم أشيا فرية
كل يدعي اجتهادا ولا ترضيه إلا مجلة شرقية

ويحطون من خليل و شراح عليه و كتبنا الأوليـة
ويرون أن السواد من الأمة في باطل و أدهى بليـة
وعجبنا لهم إذا بصروا قـوما على الذكر مع صفاء الطويـة
سأهم ما رأوه من ذكر مولانا تعال له النعوت السنيـة
وإذا بصـروا مجالس لهـو بأسطوهم و وازروا في الرزيـة
إن هذا النفاق الذي يفضـي إلى شقوة بهم سرمدية
ما لهم في العلوم من قدم إلا احتجاجا من صحفنا العصريـة
ناظروهم إن شئتـم في أصول أو فروع أو جملة نحويـة
هذه فرقة أضلت وضلت شفيت من أهوائها النفسيـة
قد قضى ربنا فريق سعيـد وفريق ذو شقوة أرليـة
أيها المؤمنون إن فعال القوم تنبي عما لهم من دنيـة
فانظروهم لدى النوادي حضور و بيوت الإله منه خليـة
و يقومون للصلاة كسالى ناشطين لوصل كل فتية
بعضهم يترك الصلاة وبعض لا يبالي إن آخر الوقتيـة
لا ترى عندهم كتابا ولا سبحة إلا جريدة أو عصيـة
مع دروس مشحونة بسباب فتنه أهل الذكا للبقية
وفي قصيدة أخرى تربوية "نصيحة الشباب" المزيحة للسحب والضباب، التي
أصبحت دستورا لطلاب العلم، ومقررة في الحلقات العلمية بالزوايا و المساجد يقول
فيها:

الحمد لله الذي قد فرضا فرائضا ادوية روائضا
أعظمها فريضة النصيحة قد وردت أخبارها صحيحة
وبعد الاستهلال يمضي في تعظيم العلم وضرورته للإنسان يقول:
فإنما الدين أساس الارتقا و من يرقق دينه فما ارتقى
والدين جسم روحه بالعلم كالروح في قالب هذا الجسم
بالعلم تدري و اجبات الله و الواجبات لعباد الله
فالعلم التحرير يسعي نوره بين يديه كاملا شعوره
والجاهل المسكين كالأنعام أو كالنعماء عن هداه عامي
وفي الصحيح العلم بالتعلم فريضة في عنق كل مسلم

فكل من لا يعشق الدروسا
عار عليك يا شباب أن تكون
فإنما الصلاة رأس الدين
ويمضي في وصيته الثمينة قائلا:

يا راضعا أبازم الدخان
أخطأت فيما تتتحيه جدا
إن الدخان منتن وسرف
تجذب نيرانا إليك موقدة

ومنها

يا ساهرا بليلة في القهوات
ما هكذا والله شأن المؤمنين
فالمؤمن الحازم قوام إلى
إذ الصلاة صحة وبركات
وفي الحديث إن ترك الصلوات
كفر فما أعظمها من حسرات
ومن أساطين العلم والأدب الذين أنتجتهم المنطقة العالم العارف الشيخ اللقاني
السائح الذي ترك ديوان شعر .

فمن جيد شعره هذه القصيدة التي يتحسر فيها على ما آل إليه الشعب الجزائري
من تخلف وجهل وفقير فيقول⁸:

بني الجزائر هذا الموت يكفيننا
بني الجزائر هذا اللهو أوقعنا
بني الجزائر هذا الفقر أفقدنا
بني الجزائر ما هذا التقاطع من
فقر وجهل وألام ومسغبة
حياتنا قط لا يرضى بها أحد
الناس في الجو طاروا و حلقوا
يا أمة ضيعت مجدا لها سلفا
يا دهر رفقا بأغنام مقطعة

لقد أغلت بحبل الجهل أيدينا
في سوء مهلكة عمت نواديها
كل اللذات حينما يقتفي حينما
دون البرايا... عيوب جمعت فينا
دون البرايا عيوب جمعت فينا
يا رب رحماك هذا القدر يكفيننا
وعيشنا ضار زقوما وغسلينا
ونحن نحسبهم جهلا شياطينا
طال النداء بنا لو كان يجدينا
عشى بمربعنا سيد ليبيانا

ويوجه رسالة إلى شعبه في الجزائر فيطرح جملة من أسئلة التّرجي والتّوبيخ و الاستنكار لتحريك همم العلماء والمتّقين ليعثّ فيهم روح العمل و ترك السكون والخمول، والرجوع بالأمة إلى ماضيها التّليد وتاريخها المجيد لتلتحق بركب الأمم فيقول⁹:

بني وطني هل من نزوع لأحدا
تقد ركبوا للعلم كل منطاد؟
بني وطني هل من نفوس شريفة تغار على الأوطان غير آساد؟
بني وطني هل من عقول كبيرة يقوم أمام الظلم وقفة أطواد؟
بني وطني هل من شيوخ أجلة عدوا في سماء العز كعبة قصاد؟
يزودون عن حوض شريعة كلما أناط بها الأعداء شبهة حساد
بني وطني هل من خطيب مدرب يحرك أرواحا بمقولة الصادي؟
بني وطني هل من حكيم مجرب تعلق من بحر السياسة في كل واد؟
شق عن الأرواح ثوب رذيلة و يلبسها بالعلم حلة إرشاد
يطالب حقا ضاع منذ ضاع أهله و ينشر في الأبناء تاريخ أجداد
ألا ليت شعري و الحوادث جمة لماذا أرى في الشعب علو أضداد؟
علام أرى أرض الجزائر أصبحت بها تضرب الأمثال للرائع و الغادي؟
ألم يكفهم ما حل بالشرق منذ غدا يقدم ذو الأعلام عن ناطق الضاد؟
وفي قصيدة أخرى حشد فيها ألفاظا رقيقة، تتوافق مع الغزل لكنها، تنافرت ولم تنسجم مع البحر، لأن شاعرا، لم يصدر عن غزل عبثي ليشبع نزواته ويتمتع بالأوصاف الجسدية، وإنما عبر به عن أمر أوسع، وأرحب هو حب بلاده الجزائر التي يضمحل أمامها، جمال الغيد الحسان، و عيون المها، وقوام الغزلان فيقول في قصيدة عنوانها:

يا بلادي¹⁰

أنا أهواك ومثلي في الهوى لا ييالي صار جسمي من تباريح الجوى
كالخلل
أنا لا أهوى غزالا أو حورا أو مهابة لا ولا الغيد الحسان، البارعات في
الصفات
أنا لا أهوى نجوما نيرات سابحات كل همي أن أرى مالكتي في
كمال

إن شككت في صحيح خبري فابتليني حميليني ثقل أعباء الجوى
حميليني

إذ به من بين عشاق العلا تعرفيني ثم إن شئت حياتي بعد ذا
فارجميني

قد رمى نبل جفاك كبدي بالكلام هو و الله أشد مضضا من سهام
إن مضى عصر قطعت جلّه في منام فأبشري قد سرت شوطا شاسعا في
المعالي

و في قصيدة أخرى يفتخر بقومه العرب ويعدد المزايا التي تجعله قويا صامدا
في وجه الصعاب فيتمثل نفسه حرا شجاعا عالما تقيا فصيحاً فيقول:

ما الليالي تريد قتل فضائلي و تود نهك تصبري وجلادي
و تروم محق مواهبي و شمائلي تأبى الخضوع لصمام و زناد
قد غرّها حلمي و سالف سؤددي وتربصي من حكمة و سداد
فعادت تحاول ما تظن جهالة من أن تكسر ثورتي و عنادي
أو ما ترى يا دهر أن لا أرى غيري على وجه البسيطة ناد؟
فالكفرون تضرعي و تذلي و الموت دون سماتة الأوغاد
أن ذلك الشهم الأبى و من له عند المكاره صولة الأسد
أنا ذلك الحر المدلل في الوغى كل الصعاب بتكره الوقاد
إن هي يوما باليسراع حميته و محاً بياض طروسه سواد
فإذا دعا فالناس حول ندائه و على الجميع سكرة العباد
يعطيك من سحبان سحر بيانه و يريك قسا بالمقال صاد
فتخال أنك في عكاظ وأنه بطل الرهان و كعبة القصاد

ومنهم الشيخ عبد المجيد بن حبة الذي ترك شعرا جزلا يدل على حس شعري
راق، وثقافة أدبية عالية، فمن إنتاجه أرجوزة في نسبه مع شرحها سماه: "تحصيل
الرغبة في رفع النسبة" من أبياتها

ضمنت هذا الرجز انتسابي للعرب الكريمة الأحساب
فمن سليم نسبي ممتد و قيس عيلان لهذا جد
حفيدة أحمد قريب النسبة محمد عيسى و يدعى حبة
واشتهرت أسرتنا بذا اللقب به دعانا من نأى ومن قرب.

بالإضافة إلى عدد من القصائد الشعرية في الاخوانيات والرياء ، فمن شعره هذه الأبيات التي قالها عام 1940 يصف سوق تكوت وحركة الباعة ويتأسف على استهانة الناس بالعلم والعلماء و الزهد في الإنفاق عليه فيقول .

سوق حكّت ما مضى في سالف الحقب . فبينها وبين عكاظ أقرب النسب
كل مباع بها يسمى مبيعا فمعا ترى كسادا لغير العلم والأدب
وذاك أن عكاظا حوى عربا بدون عجم وذو عجم بلا عرب
فعرّبها استعجموا و ما بربرها من همة أن تقيم المنطق العربي
أليس قحطان من مازيغ كان أخا وحماهما حضن أم برة، وأب
إنما المجد شيء حاز معظمه عرب وبر بر قدما دونما كذب
عندما زار العالم الأصولي عبد الحي الكتاني ،مدينة سيدي عقبة ،وكان في استقباله جمع من العلماء من بينهم المترجم له ، فأحب أن يسجل هذه الحادثة ، وينوه بالرجل، وينصفه في علمه ، بالرغم من موافقه السياسية ، التي كانت تتعارض مع النضال الفكري والإصلاحي بالجنّاح المغربي ، فقال فيه مرتجلا هذه الأبيات:

أكرم بهذا السيد الرباني *** شيخ العلوم العارف الكتاني
ينسيك قسا إن تكلم خاطبا *** وإذا روى تتذكر الشيباني
يا طالما منيت نفسك درسه *** ها هو حيث تناله العينان
فانثر علينا من حديثك جوهرًا *** أولا ،فآيات من القرآن
وفي مريثة طويلة، بكى بها رجل الإصلاح بالمغرب، صديقه وصفه الشيخ الأخضر بن ثابت يقول فيها مودعا:

ألّفنا الأحداث لما تواترت *** علينا فلن نجزع و لم نتضجر
ولكن هذا الرزء أفضع وقعة *** فأحشاؤنا من وقعه في تسعر
فأعضل به من حادث كاد خطبه *** يعف على أرزاء جملة أعصر
غداة نعي الناعون من كان للندى *** وللعلم و الإرشاد أقرب مصدر
هما له في الصالحات سوابق *** وفي بيته الإصلاح أريج متجر
أياديهِ للعارفين بيض كوجهه *** ومن عجب أن راح يدع بأخضر
لقد كان ثبّتا راسخ الدين حجة *** يسمو المعالي الغاليات فيشتري
عزيز علينا نعيه يوم موته *** فما أهله عن ذاك منا بأجدر

وقد كان له مساجلات ومطايبات بينه وبين بعض العلماء من جيله ، وهذه
 مساجلة بينه وبين الشيخ شريط الزريبي حول العقيدة ، أيها أصح وأحق بالمتابعة؟
 مذهب السلف، أو مذهب الخلف؟ فانتصر الشيخ عبد المجيد للسلف
 فرد عليه الشيخ عبد المجيد بهذه الأبيات من نفس البحر وبنفس القافية والروي
 قائلا :

أتى تأسيسكم يحوي فصولا *** ذكرتم أنها أهدى سبيلا
 لعمر ك ما فخر من فخرار *** فندعوه به الشيخ الجليلا
 ألم يك نسخة لأبي علي *** يذيع ضللا قالا وقيلا
 متى كانت أثينا أو كريد *** واهلها ينثرون العقولا
 وكيف علومهم تهدي لدين *** وقدا شيخهم رفض الرسولا
 عجت لمرتج بقراط أن *** يقيم له على المولى دليلا
 و لم يقنع بإيمان الأولى قد *** أبى الشرع فضلهم الجزلا
 أرينك صبح أحمد على أفادوا *** علوم كريد أم ضلوا السبيلا
 يمينا لو دروا منها فتيلا *** لا كانوا علموا جيلا فجيلا
 فحسب أولها إيمان صبح به *** في الخلق قد نعموا نزولا
 وكم من دارس كالفخر كتب *** بها بحث العناصر و الهولا
 ولم يذهب إلى مقال فخر *** فمن ذا أولى منهما قبول
 فرد يا شيخ النقل و احذر *** علوم الشعم بئس همو قبلا
 نصحتك فاستمع يا شيخ نصحي *** وعض على ناجذك الطويلا

ومن الذين كان لهم باع في رجز الشعر الشيخ الطاهر شوشان الجريدي لكن مع
 الأسف ضاع إنتاجه ولم يبق إلا المروي عنه والمروي ضاع مع موت رواته، فلم
 نعر إلا على رجز طويل دافع فيه عن أهل السنة والجماعة منه هذه الأبيات:

وعندنا إن الأئمة أربعة وغيرهم من ادّعى مبتدعة
 فمالك إمامنا و التابعي و الحنبلي أحمد و الشافعي
 و الحنفي منهم بلا نزاع قد ثبتوا بالحق و الإجماع
 و غيرها فباطل لا يقبل ومن زاد قلنا حق يقتل
 ثم استمع لأعظم الدواهي بنفهم لرؤية الإله
 وسلخوا طريقا ذي اعوجاج وخوضهم في ليلة المعراج

ما قولكم في سورة سبحان أ هذا حق أم بهتان ؟
 أما ارتقى للملكوت الأسمى من قاب قوسين أو أدنى
 غرتهم النفس مع الأهواء وحادوا عن طريق الاستواء

ومن الأعلام الشيخ محمد بن سليمان حمداوي الذي ترك مدونات علمية في اللغة والفقه ، قد اشتغل بالوعظ والإرشاد ، والتدريس والتوجيه والدعوة، وتصحيح عقائد العامة قبل الخاصة وهذه عادة كل العلماء الذين عاشوا في هذه الديار ، فلم يخلف لنا انتاجا يمكننا من معرفة ملامحه العلمية ، ومستواه الفكري ، ومع هذا فله مدونات علمية في اللغة والفقه وبعض القصائد الشعرية منها أرجوزة في نسبه .منها هذه الأبيات :

فمن سليلها محمد ابن سليمان ابن أحمد الزكي ابن المداني
 نجل محمد الولي الصالح والده محمد ابن السايح
 ابن محمد الكبير ابن محمد بالسائي يدعى نجل أحمد

و له بعض القصائد الشعرية لم نعرث عليها.

ومن الشعراء الوكيل الشرعي التجاني حقي ،الذي قال العديد من القصائد الشعرية في المناسبات،وله كتاب مخطوط في التاريخ المحلي تحدث فيه عن واحدة تفرقت وضواحيها.

ومنهم الأعلام النابهين محمد الصغير بحة التماسيني الذي عانق نظم الشعر الوطني الذي يحفز النفوس ويدعو الشباب إلى طلب العلا ومن شعره هذه الأبيات التي قالها في بداية الأربعينات رواها لنا الطالب علي بوخزة أحد تلاميذته الأوفياء:

يا شباب الجزائر أنت خير الذخائر
 حيث ما أنت سائر تحي عهد الجودود
 يا شباب العرب أقبـلـن للأدب
 للمنى و الطلب والمقام السعيد
 هذا عصر الجمال و العلا و الجلال
 قل كما الله قال فيه هل من مزيد
 لا تكن في الثرى يا شباباً درى
 إن خير الورى من يرى في صعود

وفي قصيدة أخرى يقول:

يأليلة الأُنس عـودي بما يسر فـؤادي
يبدو نجم صعودي على سماء بلادي

ومن الأعلام الذين كان لهم حضور علمي بوادي ريغ الشيخ أحمد بن أعظامو، اشتغل بالتعليم والتدريس و قدكانت له جولات في قول الشعر لكن مع الأسف لم نعتز على شيء من شعره، و من الصفات العلمية التي لزمته في حياته ، أنه مرح كثير النكت العلمية والنوادر الأدبية حتى أنه جعل النكتة النادرة لازمة من لازماته ، و وسيلة من وسائل التعليم ، ولغزارة قاموسه اللغوي وسعة حفظه للشعر العربي، إن كل كلمة غريبة في القرآن أو في السنة إلا و يستشهد على معناه في بيت من الشعر العربي القديم الذي يفسره، فتخاله أبا علي القالي في أماليه أو ابن سلام في طبقاته أو أبا تمام في حماسه.

ولشدة حرصه على سلامة اللفظ، والحفاظ على نطقه، ومخارج حروفه يصحح للناس منطقتهم و يصوب لغتهم خصوصا المتعلمين، فإذا تكلم أمامه شخص متعلم بكلمة محرفة استوقفه، وصحح له النطق بها وراجع وأعطاه الأوجه المشتركة في معانيها وهذه من الأمور شاهدهتها بنفسي وأنا في طور الطلب.

فمن تلك المواقف، إنني كنت أسير مع أحد الزملاء المعلمين الذين يدعون معرفة واسعة باللغة ، و يتفاصحون أمام المتعلمين، فرأى الشيخ أحمد بن أعظامو جالسا على كرسي أمام إحدى المتاجر بجامعة، وحوله جمع من الناس _ ولم أكن أعرفه _ فقال لي الزميل ها هو الشيخ أحمد جالسا، تعال نسلم عليه فتقدمنا للسلام عليه فقال الزميل: السلام عليك يا " سيدي" بكسر السين والذال وإهمال الياء فرد عليه الشيخ: لست سيدك يا ابني فإذا كنت تريد توقيري فقل "سيدي" بفتح السين و تحريك الياء المكسورة المشددة لأن السيد بكسر السين وإهمال الياء تعني الذئب في لغة العرب و أنا لست ذئبا و أنشد قائلا مستشهدا :

ولي دونكم أهلون سيّد عمّسّ وأرقط زهلول وعرفاء جيال

و قد احمرّ وجه الزميل وخجل من نفسه، ومن يومها عرفت الفرق بين سيدي وسيدي، وإذا كان لهذا معنى فإن للشيخ باع في فقه اللغة ، كما كان شيخنا مولعا بالألغاز الفقهية والنحوية وغريب اللغة .

وكانت الموعظة _ رحمه الله _ لا تفارق شفثيه فكلما جلس في مجلس أو مر بجماعة جلوس أو حضر حفلة زفاف أو شهد جنازة أو عاد مريضاً، إلا كان فيها واعظاً و مرشداً وناصحاً وموجهاً.

ومن الأعلام الشيخ إبراهيم قادري الراشدي النسب والخليلي المسكن ، أخذ على الشيخ أحمد بن أعظامو مباديء النحو و الصرف ثم جلس بسيدي خليل للشيخ أحمد البسطامي لمدة أربع سنوات فأخذ عليه شرح بن عقيل و المكودي على الألفية ، ومفتاح العلوم للسكاكي وشروحه وسيدي خليل في الفقه و شروح بعض المتون العلمية المقررة و قد أجازته للتدريس.

كتب مجموعة من المقالات في الدين والاجتماع، و كتاب في التفسير الكوني سماه "اقتران الأرض بالسماء في القرآن الكريم" ومجموعة من الخطب الجمعية، وله بعض القصائد الشعرية في الوصف والثناء، ضاع أكثرها ولم يبق منها إلا النزر القليل.

منها هذا المقطع من قصيدة طويلة يرثي فيها قرية سيدي راشد مسقط رأسه بعد الحالة التي آلت إليها، من هجر أهلها وموت نخيلها، وغور مياهها، متحسراً فأتشد يقول :

أبيت حليف النجم في ظلم الدجى *** أفكر في ليلى وأيام صبوتي
وعهدي مع ليلى مضى عقب الصبا *** فما كنت أخفيه على أصفى أحبتي
عمدت لتجوال في ربا دارها *** وجدت خلو الدار سبب وحشتي
تخالفت الأرواح تعفي رسومها *** وجاءت دعاص الرمل تملأ تربتي
فصارت مراع للظبا أمينة *** وفيها مراد الوحش يرقب غفلي
منها هذه القصيدة التي قالها عن فلسطين عام 1948 منها هذه الأبيات:

بكيت بوخش سلبت سعاد	وحاسبت نفسي عما يجب
إذ ليلى تتادي الشياب	يا آل هاشم ويا تغلب
الوعد يدوس كرامتها	ودمعها على خدها يسكب
قم واستجب للنداء	وعرف بليلى لمن تنسب
واحم حمى دارها	ممن حقدده لا ينضب
فليس جباناً قلته الوفاة	و تلقى شجاعاً لها يطلب
فلسطين يا عبرة الأزمنة	لك في الأساطير ما يكتب

ويقول في قصيدة أخرى ينتقد فيها تصرفات بعض الشباب منها:
 يفاخر بروسو وزاكو و ينسى رسول الأمام
 وراح يزاحم اختها زج الحجا و ذر غبار و تلويث فم
 و هام بجيالات وماري و شبههما وقال لسلمي ما أنت لي ابنة عم.
 وفي وصيته إلى أبنائه في مرض موته قال:

قد هام قلبي و همهمت شفـتيو دمع عيني سال كوابل المطر
 مما أعاني من تذكر صبيبة لا يجدون حنان الأم في البشر
 و في مغربي كيف حال أفئدتهم يلتفتون حيارى خافتي النظر
 الأم تحت الثرى و الأب في مرض رهن الفراش يعاني شدة الضرر
 أولادي عنكم راض مثل خط أبي ما دمت حيا أو وسدت في الحفر
 الحكم لله وحده فرد صمد و كلنا يابني في رحمة القدر

نماذج من نثره:

1 - يقول في كراس من كراسته، عن علاقة السماء بالأرض وحياة الإنسان

بينهما :

إن الإنسان جزء من طين الأرض ، في جزئه المادي، كونه متكون من المعادن
 التي تحويها تربة الأرض، وهو هيوولي سماوي في جزئه الروحي الذي لا يعرف
 كنهه إلا الله خالق الإنسان، وفي هذا يشير ابن سينا إلى طبيعة النفس الإنسانية فيقول:

هبطت إليك من المحل الأرفع و رقاء ذات تعزز وتمنع
 وصلت على كره إليك ، وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع

فالإنسان يتحرك على الأرض بجزئه المادي ، يمشي في مناكبها ويتدبر عيشه
 بجزئه المادي فيأكل ويشرب من رزق الله الذي أودعه في الأرض ، والسماء هي
 السبب المباشر في إحياء الأرض بواسطة الأمطار التي تنزل منها، وفي ذات الوقت
 بها يتعرف الإنسان على الوقت وتعاقب الأيام وأوقات العبادة التي تربط جزءه
 الروحي بالسماء، بواسطة الشمس والقمر والنجوم".

2 - وهذا جزء من رسالة بعث بها إلى الوالي العام الفرنسي سنة 1935م

يعارض فيها استيلاء المعمرين على الأراضي الفلاحية عن طريق البيع من الأهالي
 الضعفاء، عنونها أرض سيدي راشد أرض عروشية لا سلطة للأفراد عليها

" ما هذه المحاولات؟ وماذا يراد منا أو لنا من الخير أو الشر؟ كانت واحة سيدي راشد من أزهى وأغنى الواحات في وادي ريغ، وكان أهلها ذو حظ عظيم في جنوب عمالة قسنطينة، ولكن لقرب موقعها من قرية السفاو الأثرية انهالت عليها كتائب الرمال المتركمة كالجبال، وعجز أهلها عن مقاومة ذلك الطوفان التراي، مع عدم عناية الحكومة، بوسائل وقاية العيون من الضياع، وإن الرمال لخطر على مياه وادي ريغ، لملازمته منابعها تحت الأرض، فكيف بها إذا كانت من فوق ومن تحت؟ وكثيرا ما صرخنا واستجدنا بالحكومة، وأرض سيدي راشد في نقص متتابع، حتى غاض كل مائها ويبس نخيلها، وارتحل منها أهلها فأصبحت معدومة الحدود، مجهولة المعالم، مطموسة الرسوم، ورغم تكرار الشكوى للحكومة، وما من وال على أرض تفرّت، إلا ويعد أهل سيدي راشد برفع قضيتهم إلى الولاية العامة، وإصلاح حالهم، ولكنها مواعيد عرقوب "

3 - وهذه فقرة من خطبة جمعة أيام الثورة، يعظ فيها المصلين ويحثهم على الوحدة والتعاون، والتماسك :

" أيها الناس لا تكونوا، كالذين تفرقوا واختلفوا، بالمراء والجدال والخصام، واتباع الهوى، وطاعة شياطين البشر من أجل حطام الدنيا، فإن الدنيا زائلة والحفاظ على الشرف هو طريق الخلود، وإياكم والخروج على جماعة المسلمين، واحذروا أن يستقل كل برأيه، إنكم تسمعون كل جمعة عليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: " من فارق الجماعة شبرا فقد خلع ربة الإسلام من عنقه" و روى البغوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: " من سره أن يسكن بحبوة من الجنة فعليه بالجماعة، فإن الشيطان مع الفذ" فواجبكم أن تتعاونوا يساند بعضكم بعضا، وقفوا أنفسكم بالوحدة، فبالوحدة تتغلبوا على من سواكم، تعاونوا بالمال وبما استطعتم ولو بالكلمة والطيبة وعدم التشهير، وإلا تفعلوا فقد تسكنون بحبوة من النار و يصدق عليكم قوله تعالى ﴿ تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى﴾

من الأعلام الذين كان لهم نشاط علمي و اشتغال بالأدب الأستاذ علي كافي، الذي تعلم في الكتاب على يد الطالب عنانو وأتم حفظ القرآن على يد الطالب بابا، ثم جلس إلى حلقة الشيخ الطاهر العبيدي بالمسجد الكبير، وفي عام 1947 ألتحق بجامعة الزيتونة مع مجموعة من أبناء تفرّت فقضى فيها سبع سنوات فخرج بشهادة

التحصيل ، وعندما عاد إلى الوطن التحق بمدرسة الفلاح التي أسسها الحشاني بن العمري وبعد الاستقلا اشتغل استاذًا ثم مديرا إلى أن أحيل على العطلة الرسمية. تسمعه عام 1952 في مدينة باتنة أما جمع من الشباب بمسجد عبد القادر السائحي، ويحضور الشاعر الكبير محمد الأخضر السائحي والشاعر الأستاذ أحمد بن الطيب معاش ، بمناسبة إحياء ليلة القدر فلا يأبى إلا أن يخلدها بهذه الأبيات فينشد مخاطبا شباب الجزائر ليحرك فيهم الهمم وكأنه يناديهم ليوم عظيم أوشك أن يهل هلاله فيقول :

سر والمعالي فليس النصر أحلاما أيا شباب العلا قم حيّ أعلاما
وصف لهم كيف كان الدين مزدهرا واقصص عليهم من التاريخ أيا ما
أيام عز رعاها الله قد ذهبت وأصبحت في عيون الناس أوهاما
شباب باتنة من للبلاد إذا إذا تنكر الجيل للأوطان أو ناما
فأنت في نظر الأوطان متقدما فكن طموحا إلى العلياء مقدما
يا ليلة القدر و الأحكام جائزة فهل ستمضي ليالي العمر آلاما
يا ليلة القدر وقد أقبلت مغرفة و الفجر أقبل بالآمال بساما
إليكم سادتي كالمسك عاطرة تحية من فتى بالشعر قد هاما

تسمعه في السجن عندما أُلقي عليه القبض، وقد سلطت عليه زبانية العذاب جام غضبها، وأذاقته أنواع العذاب، يقول ويتحدى زنازة السجن و خزنتها القائمين عليها ، متمثلا المثل الشعبي الذي يحدد معيار الرجولة في أيام المحن " الحبس للرجال" ومستمدا ثقته من قوله تعالى: ﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقا ﴾ فيقول:

أيها السجن سـلاما قد دخلناك كراما
لم نكن قط لئاما أيها السجن المهمول
قد دخلناك بفخر وصبرنا صبر حـر
رفض الذل لكفر وأبى العيش الذليل
إيه يا أرض الجزائر قد تركت الخصم حائر
كل فرد فيك ثائر يطرد الجيش الدخيل
ضيّقوا عني الخناقا ضربوا حولي نطاقا
أبعّدوا عني الرفاقا كي يفوزوا بدليـل

يا أخي سر قدما نحو تحرير الحمى
أصيغ الأرض دما ترعب الخصم الجهول
يا عدوا لبلادي عد إلى نهج الرشاد
قد دعا داعي الجهاد فتأهيا للرحيل
أيها الأعداء صولوا في زمان لا يـطـول
سنة الكون تقول دولة الظلم تـزول

وعندما أشدت لهيب الثورة، وعلا صوت الجزائر يدوي على لسان عيسى مسعودي، وهو يحفز الشباب للبذل والعطاء ، ويدعوهم أن يتأسوا برسول الله ﷺ في جهاده ودعوته حتى النصر ، ويشيد بكفاح الأبطال في الجبال ، ويشر بالنصر القريب، أـبى علي كافي إلا أن يعبر عن أحاسيسه ومشاعره ويخلد هذا الصوت في قصيدة طويلة تقتطف منها هذا المقطع:

رددي يا جبال صوت الرعود وانشدي للأنام لحن الخلود
و ارفعي راية الكفاح للشعب عاش دهورا مكبلا بالقيود
يا ملاذ الأحرار في كل وقت أنت آمالنا لعهد جديد
فابعثي بالأسود من كل صوب وارحمي يا جبال كل شهيد
لك في القلب يا جبال جسور ذكرتنا بثورة التوحيد
حين ضاق الكفار بالدين ذرعا و تنادوا بالشر و التهديد
فأقام الرسول في غار ثور و انبرى للجهاد دون حدود
فعسى الله أن يجود بنصر لبلادي و ليس ذا ببعيد

واسمعه يتألم عندما لا يسمع الجديد من شعر أستاذه محمد الأخضر السائحي، و يتأثر أن يحتجب عنه صوته الشادي، فيبعث إليه بهذه الأبيات، بعد غياب طويل ، واشتياق لدعاباته الأدبية، ومسامراته الفكرية، وقراءاته الشعرية، يرجوه فيها ألا يحرمهم من جميل شعره ، ويعود بهم إلى أيام الشباب ، ويبعث فيهم الذكريات الجميلة التي عاشوها معه فيقول:

بلبل الشعب من قوافيك هات قد ظمئنا لتكلم الصدحات
هاتها روضة تطاول حسنا وجه حسناء ضاحك القسمات
هاتها في جمالها علنا نذكر ما كان بيننا من صلات
صد ذاك الجمال عنا فلم يبق سوى لوعة تنثير شكاتي

وفي الوقت الذي كانت فيه المعارك الفكرية والثقافية في أوجها بين الزيتونيين والصادقيين، يتعايرون، فالصادقيون يرمون الزيتونيين بالرجعية والعقم الفكري، وينعتونهم بالتخلف عن الحضارة العصرية، والانغلاق على أنفسهم، والاكتفاء بترديد الماضي، بينما الزيتونيون يرمون الصادقيين بالانسلاخ عن الذات، والنتكر لقيم أمتهم، و الذوبان في الثقافة الغربية التي أبعدتهم عن شعوبهم، فلم تفتح هذه المواجهة ليسجل موقفه ورأيه في قصيدة، قالها في حفل انتظم في شهر جوان عام 1952 بالمدرسة اليوسفية يرد فيها على الصادقيين، ومعتزا بانتمائه إلى الزيتونيين؛ فقال مفتخرا بأفضال الزيتونة على الأمة :

حمتك السماء زيتونة العز أشريقي	وطيري بأجواء الحياة و حلقي
و دوسي يد الأعداء لا تعبئي بها	شبابك أقدار على كل مارق
و رثت عن الأسلاف كل فضيلة	نبات ابن حبيب و وثبة طارق
فأنت على مر الزمان منارة	تؤمن للساري اجتياز المضائق
إذا ذكرو الخضراء كنت جمالها	فأنت سام الفخر دون تملق
و لكن خفافيش الظلام تجمعوا	يكيدون للإسلام كيد منافق
ويوم تعالت في المساجد صيحة	منادية يا خيل عقبة سابقي
فكان لها وقع السهام على العدا	ورد على كيد العدو بمنطق
فيا أيها الحفل الكريم تحية	أخاطبكم فيها بلهجة واثق
فلا ركنوا فالذل ليس بشيمة	لمن هو موصول برب الخلائق
و كونوا حماة للثقافة و الهدى	وربكم للمرء خير موفق

ولم يرقه أن يسمع هيام يونس وهي تترنم بأغنياتها الرقيقة، التي تهز بها مشاعر الشباب و الشبان وتثير فيهم رغبة الوصال

ما باله لايرحم	كأنه لا يعلم
يمر خلف بيتنا	يمضي ولا يكلم
يظن أنني طفلة	صغيرة لا تفهم
فها أنا كزهرة	فيها الشذى و البرعم

فيعارض الأبيات على نفس الوزن والقافية، و يرد عليها باسم الفتاة العربية الشريفة العفيفة فيقول:

ما باله لايفهم كأنه لا يعلم

غدا سيقبى ربه بذنبه و يندم
 يظن أنني طفلة تنحط فيها القيم
 لكنني لا ارتضي بشرفي بهم
 حرיתי في شرفي و ليس فيما زعموا
 إنّ الذي فطرني أدري بنفعي منهم
 يا قوم هل من غيرة أليس فيكم مسلم؟
 يذود عن حياضها حتى تصان الحرم

علي كافي متصوفاً: في هذه الأبيات يحدد علي كافي مذهبه ورأيه في التصوف
 عموماً فيقول:

من ضيع الخلق في درب المتاهات و أبعد الناس عن نهج الرسالات
 سوى زنادقة أخفوا مبادئهم تحت التصوف خوف الاتهامات
 أهل الحلول نصارى في مبادئهم أم أنهم أولياء في المقامات
 و الاتحاد الذي ينأى بصاحبه ليصبح العبد ربا بالسخافات
 و وحدة لوجود من يصورها ويجمع الكفر والإيمان في ذات
 إني برئت من الإلحاد متجهاً لفاطر الأرض حقاً والسموات

علي كافي إعلامياً:

عندما فتحت إذاعة الواحات أمواجها الأثيرية عام 1956، كان الشيخ علي
 وقتئذ مديراً لمدرسة الفلاح العربية الحرة، فأراد أن يبلغ رسالته القومية عن طريقها ،
 ويصل صوت الوطنية إلى أذان المستمعين بطريقته الخاصة وبتوريته الذكية، فكون
 من بعض التلاميذ والتلميذات مجموعة صوتية، يقدمون نشاطات إذاعية ثقافية متنوعة
 ، على غرار حصة الحديقة الساحرة ، والبيت السعيد ، وأعد للمجموعة برنامجاً
 خاصاً سماه " حصة الخميس، وو ضع للجنيريك أنشودة ، لحنها الأستاذ المكي
 العمري هذا نصها:

حصة الخميس حصة طريفة
 بالدرس النفيس و الروح الخفيفة
 أيها الصغار في كل الديار
 قد حفظنا العهود وبذلنا الجهود

فابعثوا بالردود لحصة الخميس

وامتدت هذه الحصة حتى بعد الاستقلال ولكن في ثوب جديد وهدف جديد، وقد لاقت هذه الحصة نجاحا باهرا ، وبإمكان القارئ الآن على الإذاعة الوطنية ، أن يبحثوا في إرشيف الإذاعة القديم، فسيجدون تسجيلات هذه الحصة .

مميزات شعره:

يتميز شعر الشيخ على كافي من ناحية الشكل بسلاسة اللفظ ووضوح المعنى، يستعمل الألفاظ البسيطة السهلة المستعملة ، حتى لا يتعب القارئ في فهم ما يقرأ ، ولا يضطره إلى استعمال القاموس لفهم الألفاظ ، كما أنه يطوِّع الوزن فلا يجد القارئ في شعره تعقيدا في تركيبه، ولا غموضا في جملة، أما قوافيه أكثرها ذات جرس موسيقي خفيف على الأذن تساعد الملحنين على تلحينها ، ويسهل على الأطفال والمتشددين إنشادها في المناسبات

وهذه البساطة في الألفاظ ، والمرونة في الوزن ، والوضوح في المعنى لم تمنعه من استخدام الاستعارات المكنية والتشبيهات البليغة خصوصا في قصائده الغزلية .

أما مضامينه الشعرية فتهمين عليها الموضوعات الوطنية، والغزل الرمزي ، مع شيء قليل من الرثاء بمفهومه الحديث الذي ينصب على مدح الأفعال وذكر جليل الأعمال، ولم نعثر له عن قصيدة مدح بها مسئولا أو شخصية ذات جاه ، وإذا مدح يمدح أهل العلم من أساتذته ورجال الإصلاح .

الشيخ علي ناثرا:

للشيخ علي نثر مرسل غزير مخطوط في أوراق متفرقة، وكنائش مدسوسة بين كتبه، تحتاج إلى جمع وترتيب وتبويب، يغلب على مضامينها الموضوعات الدينية من خطب جمعية، ودروس في التفسير والحديث ، يغلب على نثره أسلوب الوعظ والإرشاد والتعليم بأسلوب إنشائي، والمفارقة العجيبة التي تميز علي كافي في كتاباته ، أن أسلوبه في النثر أصعب في الفهم ، من أسلوبه في الشعر، لأن القارئ يجد في نثره التعقيد اللفظي فيقدم ويؤخر، ويستخدم الجمل الطويلة،

وأعتقد أن السبب هو توظيف اللغة الشفوية المباشرة المعتمدة على الارتجال أحيانا من جهة ، ومن جهة أخرى ربما تأثر بأسلوب شراح المتون الفقهية.

علي كافي مؤلفا:

لم يتفرغ الأستاذ علي كافي للتأليف، ولم يحترف الكتابة، لاشتغاله بالتربية والتعليم ، إدارتها طوال حياته العملية، وتفرغه للوعظ والإرشاد في المساجد ، وتوجيه وتعبئة الشباب بمحاضراته في الثانويات ودور الشباب، شأنه شأن أساتذته في الحركة الإصلاحية الذين وهبوا وقتهم لبناء العقول وتربية النفوس، ومع ذلك لو جُمع ما قدمه من دروس، وكتبه من محاضرات ودونه من خطب في شتى الموضوعات، لوجدنا كما هائلا من النصوص تشكل تأليفا كاملا يستحق النشر والتوزيع تستفيد منه الأجيال، وتطلع من خلاله على مرحلة من مراحل تطور ثقافتنا الوطنية.

وفضلا عن ذلك فقد وجدنا في مكتبته تأليفين قيمين :

مجموعة من المسودات والرسائل المختصرة في الحديث والتفسير والعقيدة وحلقات مترابطة في تاريخ مدينة تڤرت.

رسالة قيمة في المواريث أصلها دروس كان يلقيها على طلبة الحلقات المسجدية المهتمين بالثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية، نأمل إن شاء الله أن تقدمها للطبع. ومن الشخصيات الذين كان لهم حضور ثقافي بمدينة تڤرت الأستاذ محمد كافي الذي أفنى عمره في التعليم حتى صار التعليم جزءا من حياته ، فمن نظمه وشعره التعليمي هذه القصيدة في إعراب الاستثناء يقول:

إن لم تجد نفيا فانصبه دائما كقولي غاب القوم إلا عالما
و إن وجدت نفيا قم بما يلي أحذف أداة الاستثناء و اسأل
هل الكلام وقع فيه خطأ أو بقيت بنيته مرتبطة
وإن وجدت قولك صحيحا اتبع أداة الاستثناء مستريحا
وإن وجدت قولك قد انكسر أنصب أو اتبع مستثنى ولا ضرر
ويقول في مطابقة العد للمعدود:

العددان واحد واثنان مع المعدود دائما متفقان
ثلاث مع تسع و بينهما مع المعدود دائما خالفهما

وعشرة منفردة مخالفة وإن أتت مع غيرها موافقة

أما المئات والألاف والعقود شبيهة بجبهة الصمود¹¹

ويقول في تمييز العدد:

ثلاث مع تسع تمييزها أتى جاء مجرورا بالإضافة يا فتى

تسع وتسعون إلى الحادي عشر أنصبه بمفرد فلا ضرر

تمييز الألف و المئات إن أتى تجره مفردا و مجرورا يا فتى

الهوامش :

¹ - الشيخ عبد المجيد بن حبة السلمي.

² - العياشي الرحلة ماء الموائد

³ - بعض المؤرخين ومنهم يوسف سليمان بن داوود، يقولون أن محمد بن بكر هو نفسه سيدي محمد السايح جد أولاد السايح ، وذلك لتشابه الاسم و وحدة المكان ، و صفة السياحة.

⁴ - الدكتور خليفة النامي محاضرة ألقاها في ملتقى الفكر الإسلامي بورقلة عام 1977.

⁵ - أبو العباس الدرجيني كتاب الطبقات تحقيق وتقديم محمد طلاي لجزء الثاني ط/البعث 1972. ص/1509

⁶ - أبو العباس الدرجيني المصدر نفسه.

⁷ - إبراهيم بن محمد الساسي العوامري الصروف

⁸ - سعد الله دراسات في الشعر الجزائري ص/ 34 دار الملايين بيروت 1966

⁹ - الهادي السنوسي شعراء الجزائر في العصر الحاضر

¹⁰ - الهادي السنوسي شعراء الجزائر في العصر الحاضر

¹¹ - جهة الصمود هي الدول العربية التي وقفت موحدة واتخذت قرارا واحدة ضدة التطبيع مع إسرائيل فشبه الناظم تمييز المئة و الألف و العقود أنها دائمة واحدة على الأفراد.